٣ . عندما دعا اليهود ابطال الفالوجة الى الغداء !

كانت انتخابات الرئاسة لعام ١٩٤٨ على الابواب عندما أبحرت من بالتيمور على متن شاحنة نرويجية تدعى «هوغ سيلفر ستار» كانت قاصدة الى البصرة . ولقد اخترت هذه السفينة لان برنامج رحلتها كان يقتضيها أن تبقى اسبوعين في مصر ، وكنت اريد ان تتاح لي فرصة النظر الى الحرب الفلسطينية من تلك الزاوية . ثم انني قررت ، في ما بعد ، ان ارجع الى مصر ، من طريق العراق وشرقي الاردن .

ذلك بأن شيئين اثنين صدّاني عن سبيلي . الاول ان دائرة الجوازات كانت قد قاطعت مصر ، فاذا على جوازي ختم ضخم جليل ينصّ على ان الجواز « غير صالح للسفر الى مصر والنزول فيها . » والثاني ان هدنة قلقة كانت قد اوقفت اطلاق النار في الحرب الفلسطينية ، ومن هنا كان من الجائز ان تنشأ مصاعب تحول دون ذهابي الى غزة والخطوط الأمامية ، حتى ولو سمح لي المصريون في النزول الى بلادهم برغم معارضة وزارة الخارجية الأميركية . صحيح أن قائداً مصرياً كانت تطوّقه آنذاك مع ألفين من القوات المصرية الفقيرة الى السلاح قوة اسرائيلية تتفوق

على رجاله في العَدَد تفوقاً كبيراً بعد أن افاد اليهود من الهدنتين الاولى والثانية للحصول على السلاح من تشيكوسلوفاكيا ويوغوسلافيا — ولكن كان لا بدّ من ان ينقضي اسبوعان على الاقل قبل أن تصل الـ « هوغ سيلفرستار » الى الاسكندرية .

وكان الذي دفع دائرة الجوازات الى ان تقف هذا الموقف من الراغبين في السفر الى مصر مقتل اميركي يهودي في القاهرة . ومن هنا ذهبت وزارة الخارجية الاميركية الى الاعتقاد بأن حيـــاة الاميركيين في مصر عرضة للخطر ، فهي لا ترغب في أن تجعل مني حادثةً دولية ...

وعلى أية حال فقد كنتُ في سبيلي الى البلاد العربية مزوّداً بفألٍ حسنٍ في حظٍ سعيد . وتفصيل الأمر اني كنت تراهنت في أول تشرين الأول مع صديق هولندي على أن ترومان سوف يكسب المعركة، وكان صديقي ذاك قد ارتضى ان يكون الرهان عشرة أمثال يدفعها هو مقابل مثلٍ واحد أدفعه أنا . ولم يكن الذي دفعني الى ترجيح ترومان اعتقادي بأن هذا الأخير يستطيع أن يهزم مرشحاً صالحـــاً من الحزب الجمهوري ، ولكني كنت أؤمن بأن كثيراً من الجمهوريين سوف يحجمون عن التصويت لديوي . وهكذا يكون في ميسور ترومان ان يفوز بسببٍ من هذا الاستنكاف عن التصويت . والواقع ان الأنباء التي حملها اليّ راديو السفينة بشّرتني بقدر اضافيّ من المال استعين به على رحلتي . ولم أكن لأعرف آنذاك ان ترومان سوف يخرّب على هذا النحو أصدقاءه العرب ويُنزل بالولايات المتحدة اذىً يكاد يستعصي على

التعويض والاصلاح ، والاّ لكنت خليقاً بأن اغدو اقلّ سروراً بذلك الكسب . وأياً ما كان ، فلعل ديوي ما كان ليقف من القضية الفلسطينية ، في حال نجاحه ، موقفاً أفضل ، وذلك للأسباب عينها .

ولم تكن الـ « هوغ سيلفر ستار » باخرة ضخمة . فحمولتها اقل من ٧٫٥٠٠ طن بعض الشيء — ولكن الغرف المفردة للركاب كانت تتسع لأربعة عشر مسافراً . وكان أول اتصالي بهم عقب إبحار السفينة من بالتيمور ، وكان معظمهم اخصائيين في البترول ، فهم قاصدون الى البحرين للعمل في خدمة شركة كالتكس البريطانية هناك ، وكانت مع كثرتهم زوجاتهم وأطفالهم . وكانت ثمة امرأة في ريعان الشباب عملت فترة في السلك القنصلي بالكونغو البلجيكي ، ثم غادرته لتقصد الى بلدٍ لا يقلّ عن الكونغو حرارةً ولكنه أقلّ رطوبةً بكثير — الى الظهران في المملكة العربية السعودية ابتغاء العمل ضاربةً على الآلة الكاتبة في مكتب مكيّف الهواء وبراتب اكثر سخاءً . وكان بين المسافرين ايضاً طالب نرويجي شاب يقوم برحلة علمية ، بعد تخرجه من الجامعة ، رغبةً في أن تتمّ له صورة عن العالم .

وكانت السماء تجود بالمطر حين بلغنا الاسكندرية . وكان ثمة شبه تعتيم لا تعتيم كامل . لأنه فيما كانت المنائر القائمة عند مدخل الميناء سوداء كانت انوار المدينة تبدو غير مبالية بالقاذفات الاسرائيلية التي سبق لها ان دمرت عدداً من الابنية في ذلك الثغر ، وقتلت عدداً من الناس . واذ لم تجرؤ الـ « سيلفر ستار » على دخول الميناء اثناء الليل ، وفي غمرة من البحر الهائج ، فقد بقيت خارج المرفأ الى الضحى .

وبالنظر الى الخاتم الذي يحمله جوازي والذي ينصّ على انه غير صالح لهبوط مصر فقد كنتُ شبه متأكد أنه لن يتاح لي النزول الى الشاطىء لأبسط قضيتي لشرطة الميناء . ولكن ما إن شُدّت الـ « سيلفر ستار » الى رصيف المرفأ الداخلي مقابل رأس التين تقريباً — موقع فنار الاسكندرية القديم الذي كان احدى عجائب الدنيا في العصور السالفة — حتى صعد رجال الشرطة الى متن السفينة ومعهم المراقبون العسكريون وموظفو الجمرك ، والتمست منهم السماح لي بالنزول الى البرّ المصري بعد ان بدأوا مناقشاتهم الاولية مع ربان الباخرة .

وكنت خليقاً بأن اكون اكثر تشاؤماً لو عرفتُ من قبل شيئاً عن المتاعب التي كانت مصر تلقاها من بواخر الدول الغربية . لقد سمعتُ بذلك الآن في تفصيل محزون . حتى اذا تقدمت القصة — وتأكدت ليّ فيما بعد من طريق عدد من الاميركيين البارزين الحسني الاطلاع — ادركتُ ان المصريين على حق في تخوفهم . ومع ذلك فقد منحني البوليس سمة مرور فهبطتُ البر .

وكانت مصر قد غدت منذ عام ١٩٣٦ دولةً حرة مستقلة . ولكن بريطانية ما تزال تحتل جزءاً من أراضيها هو منطقة القنال . ليس هذا فحسب ، بل لقد كانت للانكليز سلطة كبيرة على القوات المصرية المسلحة ، برية وبحرية وجوية ، بسبب من اعتماد مصر على المصانع البريطانية في ميدان التسلح . والواقع ان بريطانية رفضت ان تشحن الى مصر سنة ١٩٤٨ شيئاً من الاسلحة والذخائر

على الرغم من ان الحكومة المصرية كانت قد دفعت اثمانها مسبقاً. ومن هنا استشعر المصريون — ولم يكونوا في ذلك ظالمين — ان بريطانية تحبس عنهم السلاح ساعة الازمة .

بقيت مسألة ذلك الرجل الذي كان مصرعه مسؤولاً عن السمة المزعجة التي تُثقل جواز سفري . ومن عجب ان وقائع هـذا الحادث ، التي أيّدتها المصادر الاميركيـة الرسمية ايضاً ، كانت مختلفة جداً عما أوردته صحف نيويورك عنه . وهـذا ما جعلني أتساءل الى أيّ مدىً تملك الولايات المتحدة صحافةً حرةً حقاً .

كان مصرع مستر هاس Haas ، وهو يهودي اميركي كان في القاهرة مع زوجته ، نتيجة لعوامل متعددة أولها انه حاول ، يوم وفاته ، ان يلتقط صورة فوتوغرافية لجنازة مصرية منطلقة من احد المساجد . وهو عملٌ خليق بأن يُعتبر خروجاً خطيراً على الآداب العامة في ايّ وقت من الاوقات . وكانت تلك الجنازة، لسوء الطالع ، هي جنازة ضحايا قنبلة اعتقد المصريون ان طائرة اسرائيلية ألقتها على القاهرة فهدمت بعض ابنيتها . واذ كان الرجل الذي يرتكب قباحة التصوير يهودياً أيضاً فقـد استثيرت نقمة الجمهور العارمة . وتجاهل مستر هاس اول الأمر صيحات التحذير . فعرّض حياته لأعظم الخطر . والحق ان امرأته — وكانت معه آنذاك — لم تمسّ غير مس رفيق فانقلبت الى الفندق من غير أن تصاب بسوء ، في حين خرّ هو ميتاً وبقايا مصوّرته الفوتوغرافية الى جانبه .

وعلى العموم فقد كانت الحال في الاسكندرية ، وفي سائر

مصر من هذه الناحية ، توهم بالتناقض . كانت الاسكندرية تضمّ نسبة كبيرة من يهود مصر البالغ عددهم اربعة وستين ألفاً ، وكان كثير منهم موظفاً في الميناء أو حوله . ولقد تحدّثت الى بعضهم فلم يبدُ لي أنهم يوجسون خيفةً من أن تسبب لهم الحكومة متاعب ولكنهم كانوا قلقين لا يعوزهم التحدي . وفي مستهلّ الحرب الفلسطينية اعتقل بضعة آلاف من اليهود . وكان معظم هؤلاء أعضاء في المنظمات الصهيونية ، أو ممن وُجد في حوزتهم سلاح . ولكن المعتقلين جميعاً أُخلي سبيلهم ، باستثناء اولئك الذين اعتبروا خطراً على الدولة ، في خلال ثلاثة اشهر . وفي تشرين الثاني لم يكن قد بقي في المعتقلات غير مئتي يهودي أو نحو ذلك .

وفي طول المدينة وعرضها كانت الجدران غاصة بشعارات تلتقي كلها عند هذا المحور : « مصر تقاتل الصهيونية » . وكان في ميسور المرء أن يرى بعض البيوت التي دمرتها القنابل ، ولكنها كانت قليلة جداً . والواقع أن الاسرائيليين شنوا ، منذ شهر نوار ، غارتين على الاسكندرية أحدثتا بعض الخراب وبعض الخسائر في الأرواح . وكان لمنظمة الاخوان المسلمين التي حلّتها حكومة النقراشي السعدية والتي كان يتزعمها رجل شديد التعصب هو الشيخ حسن البنا أثر في هـــذا التخريب أيضاً . ويعزى الى الاخوان المسلمين نسف صحيفة الـ « ايجيبشين غازيت » Egyptian Gazette التي يملكها البريطانيون .

ولكن التغيرات التي طرأت عـلى الاسكندرية كانت ، من نواحٍ أخرى ، اجتماعيـة اكثر منها مادية . فمنذ الاستقلال عن

بريطانية سنة ١٩٣٦ تعاظمت موجة الوطنية المصرية واكتسبت طابعاً من العنف لم يزده خلق اسرائيل الانكلو أميركي وما تلاه من اعمال كلها معادية تقريباً لمصر وحليفاتها العربيات إلا حدةً وضراوة .

وكان البوليس ورجال الجمارك يغالون في التدقيق في دراسة الكشوف وحمولات السفن. أما معاملتهم للسياح والمسافرين العابرين فكانت تنضح بروح الشهامة والفروسية . وكان التقاط الصور الفوتوغرافية في الميناء أو الشوارع محظوراً تحت طائلة السجن ومصادرة الآلة المصوّرة .

وواضح أن ريبة المصريين في كشوف الحمولات كان لها ما يبررها. ذلك بأن عدداً غير يسير من السفن الاوروبية والأميركية قُبض عليها وهي تحاول تهريب الاسلحة والذخائر الى اسرائيل بعد ان تزوّدت بالماء والطعام والوقود من الموانىء المصرية. وحادثة السفينة الموسومة بالـ « فلاينغ ترايدر » *Flying Trader* من اقوى الامثلة على ذلك .

ففي آذار ١٩٤٨ ، قبل انسحاب البريطانيين من فلسطين ، حاولت الـ « فلاينغ ترايدر » أن تفرغ شحنة مؤلفة من عربات مدرّعة * مزودة بصهوات خاصة للمدافع ، في تل ابيب. وكانت هذه المعدات — وهي اسلحة حربية من غير ريب — معبأةً في صناديق مكتوبٍ عليها « تراكتورات » لكي تُخدع رجال الجمرك عن حقيقتها . ولم تكن تلك « التراكتورات » في الواقع

* يبلغ عددها الخمسين . [المؤلف]

غير معدات حربية فاضت عن حاجة الجيش الاميركي فاشتراها الاميركيون الصهيونيون في فيلاديلفيا .

ولم تنتبه سلطات الجمرك البريطانية الى هذه الخدعة إلا بعد إنزال اثنتي عشرة عربة من تلك العربات العسكرية الى البرّ . فاحتجزت الثماني والثلاثين العربة الباقية وبعثت بها الى الهند حيث وُضعت في بعض المستودعات ببومباي في انتظار عودة الشاحنة الى الشرق الاوسط بعد قيام دولة اسرائيل (١٥ نوار) . وفي ١٥ تشرين الثاني عادت الـ «فلاينغ ترايدر» — وكان ربانها يهودياً — الى قناة السويس وعلى ظهرها ثمانية وثلاثون « تراكتوراً » مكتوباً على كل من صناديقها بخط واضح كلمة « تل ابيب » . فكان طبيعياً ان يُصادر الجيش المصري تلك المعدات الحربية .

ومن الامثلة على ذلك ايضاً حادث الـ « مارين كارب » Marine Carp، وهي احدى الناقلات التابعة للجيش الاميركي والمسيّرة بإشراف « الأخوة لهمان » Lehman Brothers . فقد حملت هذه الناقلة اربعين يهودياً فارين الى اسرائيل ونحواً من ٦٤٠ حقيبة سفر كبيرة . فكان من الطبيعي ان يدرك العرب ان هذا المقدار الهائل من الامتعة الشخصية — ست عشرة حقيبة لكل مسافر — لا ينطوي على ملابس ولكن على اسلحة وذخائر . . .

وفي القاهرة التقيت عدداً من رجال السفارة الاميركية فأيدوا جميعاً المعلومات التي حصلت عليها من طبيب الاسنان الاميركي الدكتور هنري كورتيس Curtis المقيم في مصر منذ عشرين سنة تقريباً ، والقاضي هنري عضو المحكمة المختلطة وكلاهما يقطن

الاسكندرية . وهناك سمعت أول ما سمعت بالصدمة التي نزلت بالعرب والذعر البالغ الذي لفّهم بسبب من اعتراف ترومان المتهوّس باسرائيل ، **وبسبب من السيل العرم من الرجال والاسلحة المتدفق من الولايات المتحدة الى اسرائيل**. واذ تزاوج هذا الموقف مع رفض بريطانية والولايات المتحدة بيعَ السلاح للعرب ، فقد ادرك القوم بما لا يحتمل اللبس ان هاتين الدولتين تناصران اليهود عليهم .

وفي الاسكندرية سمعتُ ، أول ما سمعت ، بالفائدة التي جنتها اسرائيل من هدنة حزيران . ذلك بأن اتفاقية وقف النار قضت بان يتعهد الفريقان بعدم استغلال الهدنة في تحسين مركزهما العسكري وبعدم اصطناع خطوط التموين لغير نقل الطعام والادوية والمعدات الطبية . والواقع أن اسرائيل خرقت أحكام هذه الاتفاقية خرقاً موصولاً ، فاستقدمت من تشيكوسلوفاكيا وغيرها كل ما تحتاج اليه من اسلحة وذخائر .

واكتشف مراقبو هيئة الامم العسكريون في مختلف المطارات خرقَ اليهود لاحكام الهدنة . فما كان من اليهود الا ان طردوا هؤلاء المراقبين من المطارات . فاحتجوا لدى الامم المتحدة ، ولكن احتجاجاتهم لم تَلقَ في ليك ساكسس غير آذان صماء .

وفي هذه الاثناء كان سيل من السفن ينقل الى تل ابيب وحيفا مزيداً من الذخائر والطائرات ، وحتى الدبابات ايضاً . وهنا ايضاً أُقصي مراقبو الامم المتحدة — وكانوا في العادة ضباطاً اميركيين او بلجيكيين او فرنسيين — عن الموانىء ولم يسمح لهم بدخولها

الا بعد افراغ السفن بالكلية .

وما هي الا فترة قصيرة حتى امسى جيش اسرائيل احدث جيوش الشرق الاوسط وأحسنها تسلحاً . واستخدمت حكومة اسرائيل ما يزيد على تسعين طياراً اجنبياً من الولايات المتحدة وكندا وجنوبي افريقية لقاء راتب مقداره اربعمئة دولار شهرياً . فيما كان سلاح الطيران المصري – ومصر هي الدولة العربية الوحيدة التي كانت لها قوة جوية تستحق الذكر – يتولاه رجال لم يتمرسوا بهذا الفنّ فمن اليسير ايقاع الهزيمة بهم . واحبّ ان اضيف هنا ، بين معترضتين ، ان هؤلاء الطيارين المرتزقين كانوا على أية حال نكدي الطالع . صحيح ان الراتب الاسمي لكلٍّ منهم كان اربعمئة دولار مضافاً اليها النفقات ، ولكن هذا كان « قبل الضريبة » ، ومن هنا كان الطيارون الذين يتبقّى لهم من رواتبهم مئة دولار صافية يعتبرون انفسهم ذوي حظ عظيم . ليس هذا فحسب ، بل ان معظمهم لم يكونوا يملكون من المال ما يمكنهم من العودة الى اوطانهم ، عندما انتهت عقود عملهم مع حكومة تل أبيب . فلا عجب إذا ما أحدثوا لغطاً بالغاً ، بل قلاقل وشغباً ، عندما حملت هدنة رودس الى البلاد سلماً قلقاً ومؤقتاً .

ولكن هؤلاء الطيارين لم يكونوا وحدهم في الميدان . فقد توافد اليهود المدربون على القتال من مختلف انحاء اوروبة الى اسرائيل . فلم يدخل شهر تموز ١٩٤٨ حتى كان لدى الحكومة الاسرائيلية جيش نظامي مدرّب مؤلف من ٤٥،٠٠٠ مقاتل تدعمه قوى اضافية يزيد عدد افرادها على عشرة آلاف . وكان

هذا الجيش الضخم يحارب ستة آلاف جندي مصري ، وثمانيـــة آلاف جندي سوري ، وخمسة آلاف جندي أردني ، ونحواً من ستة آلاف وخمسمئة جندي عراقي .

ولقد أجمع مراقبو الأمم المتحدة كلهم على ان العرب انما خسروا الحرب الفلسطينية بسبب من قبولهم هدنة حزيران والتزامهم احكامها . ومن الاخطاء التي ارتكبها المصريون بخاصـــةٍ احتفاظهم بجيب الفالوجة ، وهو موقع أمامي ما لبث أن قُطعت سبيل الاتصـال به ، بعد انسحاب القوات المصرية التي تدعمه ، قبيل اعلان وقف النار . وكان المنطق يقضي بأن تنسحب تلك الكتيبة المقاتلة في الفالوجة الى موقـــع يقيها خطر التطويق ويحسّن مركز الجيش المصري الحربي العام . ولكن المصريين لم يفيدوا من هذه الفرصة . حتى اذا استؤنف القتـــال عزل اليهود الكتيبة — وكانت بقيادة ضابط سوداني يُدعى السيد طه — وطوقوها . والواقع ان هذه الكتيبة الباسلة تمكنت — برغم فقرها الى الذخائر الحربية وبرغم فقدانها الطعامَ باستثناء ما كان يرد عليها منه من مصر ويُلقى بـــه اليها بالمظلات تحت جنح الظلام — من أن تصدّ عدداً غير معروف من الهجمات الاسرائيلية ، حتى لقد قرر الاسرائيليون آخر الأمر ان من الخير لهم اجتناب الاحتكاك بالمدافعين عن الفالوجة حتى يعضّهم الجوع . ومن ذلك الحـــين حتى قبول مصر الصلح الذي عُرض عليها صمدت هذه الكتيبة الباسلة ولم تتزحزح عن موقعها .

وثمة بضع حكايات عن هذه الفترة ورجالها دخلت نطاق الاسطورة ولم تعد جزءاً من التاريخ . ومع هذا فهناك قصة او قصتان سمعتهما

من بعض شاهدي العيان . من ذلك أنه حين عرف الاسرائيليون أن رجال الفالوجة جائعون ، اقتربوا من خطوط الحامية المصرية رافعين راية السلام . واتفق الفريقان على ان تجري محادثة بينهما ظهيرة اليوم التالي في مقرّ القائد الاسرائيلي .

وفي الميقات المحدد وصل السيد طه وكبار اعوانه الى مكان الاجتماع ، وكان الاسرائيليون قد أعدوا مقصفاً (بوفيه) خليقاً بالفرنسيين الخبراء بالموائد وصنوف الشراب ان يعتبروه من الطراز العالي في الفخامة والترف . كان ثمة خروف محمّر كامل محشوّ بالأرز واللوز والفستق . وورق عنب محشوّ ، وسلَطات ، وزيتون ، ودجاج محمّر ، وحمص بطحينة ، وبقلاوة ، ولائحة طويلة بضروب اخرى من الطعام قُصد بها الى إضعاف معنوية اولئك الرجال الجائعين والفتّ في عضدهم .

بيد ان القائد المصري كان يعرف النفسية الاسرائيلية معرفة حسنة . لقد قدّر ان ينطوي ذلك الموعد المضروب عند الظهيرة على شيء من مثل هذا . فحذر رجاله ودعاهم الى ان يُظهروا لامبالاة تامة بالطعام الذي سيواجههم العدو به . وكان من نتيجة ذلك ان فسدت خطة الاسرائيليين . ففي بطولة ، بلع المصريون رضابهم الذي سال على نحوٍ غير ارادي بسبب من الروائح الحارة اللذيذة المنبعثة من المقصف ، وتجاهلوا ذلك الطعام الشهيّ ، قائلين انهم نعموا قبيل مغادرتهم خطوطهم بغداء ممتاز !

وكان السيد طه بطلاً قومياً حين وصلتْ الى مصر ، ولكن معنوية الجيش كانت منحطة جداً ، ومعنوية الشعب كذلك .

وكانت النقمة على حكومة النقراشي قد بلغت حداً جعلني اكتب مقالاً الى احدى المجلات الاسبوعية في نيويورك تنبأت فيه بمصرع الرجل في وقت قريب . واذ كنت مضطراً الى ان ابعث بتلك الرسالة من مرفأ حايد غير خاضع للمراقبة فقد وصلت الى الولايات المتحدة بعد عشرة ايام تقريباً من مقتل النقراشي في ٢٨ كانون الاول سنة ١٩٤٨ .

ووجّه المصريون تهديداتٍ الى القنصليتين الاميركية والبريطانية في الاسكندرية، وسفارتي الدولتين في القاهرة. وهبطت اسهم الولايات المتحدة وبريطانية الى الدرك الاسفل بعد ان عجز مصرع الكونت فولك برنادوت عن ان يغيّر من سياسة البلدين المحابية لاسرائيل. واجتاحت المصريين البارزين المتمتعين بأعظم النفوذ موجـــة من الاستياء المرير . واذكر ان عضواً في مجلس الشيوخ قال لي : « تزعم ، وانا مصدّق لما تقول ، أن نيويورك ليست جزءاً من اميركة . ولكن اذا كانت الولايات المتحدة لا تملك نيويورك ، فان نيويورك تملك الولايات المتحدة !» . وقال آخرون : «ما الذي دهى الشعب الذي ما فتىء يتشدق بالعدالة ويكثر من الكلام عنها؟ ما الذي دهى الامة التي قهرت عسكريي المانية واليابان ؟ كيف تجيزون لستة ملايين صهيوني أن يسوقوكم بالصياح والشغب ، الى ان تنتحروا سياسياً في هذه البقعة التي تعد أخطر منطقة استراتيجية في العالم ؟ »

ولأول مرة التقيت في مصر اميركيين رسميين وغير رسميين يدافعون في اخلاص عن نيات بلادهم الطيبة ويبكون في الوقت

نفسه لرغبة الرئيس ترومان في ان يُخضع مستقبل بلاده لعددٍ من اصوات اليهود الانتخابية . وفي كل مكان كان الناس يرددون الكلمة المنسوبة الى هاري ترومان : « كم صوتاً يملك العرب ؟ » ولأول مرة في حياةٍ من الرحلة والاسفار يصبح الجواز الاميركي عبئاً ثقيلاً على صاحبه .

وأياً ما كان ، فقد انتهت تحقيقات البوليس المصري الى السماح لي بالترحُّل الحرّ في الديار المصرية . وهكذا امتطيت متن الاكسبريس من القاهرة الى بورسعيد ومن ثم الى القنطرة حيث وضع الجيش في تصرفي سيارة وسائقاً ، على أن ألتحق بالـ « سيلفر ستار » في بور سودان على البحر الأحمر خلال أربعة ايام. والواقع انها فترة لا تتسع لدراسة طويلة ، ولكنها كانت خيراً من لا شيء .

وغزة هي مفتاح مصر وبابها . فعلى نحو مئة وسبعين ميلاً من القنطرة يمرّ المرء بالعريش قبل ان يصل الى جدران المدينة الخربة التي صانت مصر، منذ سنة ١٥٠٠ ق.م، من الغزو البريّ من جانب الحيثيين والأشوريين وصهيوني العصر الحديث . كانت السكة الحديدية قد نُسفت وكانت الألغام منثورة ههنا وههناك ، ومع ذلك فقد وصلنا غزة مع الغسق . وعلى طول الطريق كنا نتقدم عبر خطوط من الجنود المصريين الذين كانوا يراقبوننا دون ان يأتوا بحركة ما . وفي حالة واحدة كان استقبالنا مذهلاً . ويحسن بي ان انصّ على اني كنتُ ، عام ١٩٤٨ ، أزن ما يزيد على ٢٢٠ رطلاً ، والى ذلك فقد كنت ألبس سترة خاكية طويلة ذات اربع جيوب

وحزام ، وقبعة واقية من الشمس ، ونظارتين سوداوين ، وكان شارباي اكثر ظهوراً للعيان ، فيما يبدو ، من الشعر الذي على شفتي السفلى ، لأننا ما كدنا نقترب من جماعة من المشاة المصريين حتى رحب بنا هتافٌ مدوٍّ وتلويح بالقبعات استمرا الى ان ابتعدنا عن مدى السمع عند احد المنعطفات . وفي ذهول ، لاحظت ان سائق السيارة التي تقلّني — ولم يكن عسكرياً — قد قوّم ظهره على نحوٍ عسكري رفيع لدن سماعه الهتافات . وحين سألته عن السبب في هذا التشريف كله اجابني ، وكان قد اختير دون غيره لمرافقتي بسببٍ من معرفته الانكليزية :

« لقد حسبوك الملك فاروق ! »

وكان النهار رائعاً حاراً منيراً ، وكانت الطريق على الرغم من ضيقها رقيقة ناعمة . وخارج حدود المدينة القديمة كان آلاف من النازحين محشورين في ملاجىء مرتجلة في ميسورك ان تصفها بجميع النعوت الا الحسنة منها . وكان المحظوظون منهم ينامون في قنوات مُقبّبة تحت الطرق او في خيام من قماش . اما الكثرة الكبيرة من هؤلاء البائسين فاحتفروا ملاجىء لهم في الرمل وكدّسوا الحجارة من حولهم . ولم يكن ثمة ماء غير البحر المالح ، وغير ما كانت شاحنات الجيش تنقله اليهم من الماء العذب . وكان السعداء هم وحدهم الذين يملكون شيئاً من طعام ، لان الاغذية كانت قد نفدت من غزة فليس فيها من الطعام غير الحصص الهزيلة المخصصة للجند . والواقع ان كثيراً من الجنود آثروا ، في طواعية وطيب نفس ، أن يجوعوا لكي يتمكن اللاجئون الفلسطينيون التعساء

من البقاء على قيد الحياة .

وكانت الغارات الجوية كثيرة هنا ؛ وكانت جثث الضحايا قد وجدت قبوراً جوفاء في الرمل . وكان اسرى الحرب من اليهود قد جُمعوا خلف الاسلاك الشائكة وقايةً لهم من نقمة اللاجئين الفلسطينيين وابتغاء الحؤول بينهم وبين الهرب في وقت معاً . وكانت السلطات المصرية تقدّم الى هؤلاء أيضاً نصيبهم من الغذاء، ولكنهم ما كانوا يقتسمونه مع العرب البائسين الذين شردوهم من ديارهم . وعلى أية حال فقد كان اللاجئون خليقين بأن يردّوا ذلك الطعام لو قُدّم بعضه اليهم .

وكان السيد طه لا يزال مطوّقاً في الفالوجة ، وكانت إذاعته اللاسلكية تعلن يومياً عن حاجته الماسة الى الطعام والماء والذخائر الخاصة بالمدافع السريعة الطلقات من قياس ٢٠ و ٤٠ مم وبالاسلحة الصغيرة، **يعني الى ذلك الضرب من الذخيرة التي تحتاج اليها بنادق المصريين الانكليزية ، التي حبسها البريطانيون عنهم .**

وفي غزة قيل لي ان الوضع كله يدور على محور ما صار يُعرف آنذاك بـ « قطاع غزة » . ولقد أخبرني الضباط المصريون بأنه لم يبقَ لهم شيء كثير يعملونه هناك . لقد حُطمت معنوية الجند منذ ايام القتال الأولى عندما اوشكت الغارات الجوية الاسرائيلية ان تقضي على الجيش كله وقوافله كلها تقريباً . فالذي يبدو أن اليهود علموا ، من طريق الجواسيس ، بتقدم الجيش المصري فراقبوه من الجوّ . حتى اذا بلغت القطعات الرئيسية بمدوعاتها ومؤنها نقطة متوسطة ، او تكاد، بين العريش وغزة ،حيث لم يكن ثمة ما يقيها

غائلة الغارات الجوية، أمطرتها بوابل من قذائفهـــا عشراتٌ من الطائرات الاسرائيلية – وبعضها من طراز سبيتفاير ، وبعضها من طرز أخرى فيها طراز مسر شميت نفسه – ومزقتها شرّ ممزق ، بعد ان قتلت او جرحت آلافاً من رجالها . وهكـذا شُلّت القوات المصرية بضربة واحدة . صحيحٌ انهـا ما لبثت ان تلقت امدادات من الوطن ولكنها لم تستعدْ قطّ قوةَ الدفع التي حفزتها في الانطلاقة الاولى .

ولكن هذه الفاجعة لم تكن غير واحدةٍ من عدد من الفواجع منيت به الجيوش العربية . ولعلّ من اهم الاسباب التي ادت الى خسارة العرب الحرب أن كل دولة من دولهم كانت تنتهج نهجاً استهدفت به الربح على حساب حليفاتها . وبكلمة موجزة، لم تكن ثمة وحدة في العمل او تنسيق للجهود .

وكانت الدول العربية قد رسمت خطةً ، لو نُفذت ، لأدت من غير ريب الى القاء الاسرائيليين في البحر الابيض المتوسط بعد عشرة ايام من اندلاع نار الحرب . وكانت هـــذه الخطة تقضي بأن تتقدم القوات العربية في آن معاً عـــلى طول الساحل من الشمال ومن الجنوب لتلتقي آخر الامر في حيفا . وكان الاتفاق قد تمّ على ان تزحف القوات السورية واللبنانيـة من الشمال ، وتزحف القوات المصرية من الجنوب . وفي الوقت نفسـه يزحف الجيش الاردني (وهو القوة العسكرية الوحيدة التي كانت تتمتع بـــين الجيوش العربية بتنظيم حسن) من الشرق في اتجاه نقطةٍ عند ساحل البحر بين حيفا وتل أبيب . أما في الشمال الشرقي فكان من مهمة القوات

العراقية ان تعبر نهري اليرموك والاردن وتنتشر على شكل مروحة ابتغاء القضاء على مقاومة العدو في المناطق المطوقة أو المعزولة .

والتزمت مصر – والتزم الاردن بادىء الامر – الخطة المرسومة . ومُزقت القوات المصرية شرّ ممزّق قبل ان توفّق الى مغادرة الاراضي المصرية نفسها ، كما شرحنا . ولكن الجيش الاردني وفق الى شق طريقه في وجه مقاومة اسرائيلية متفوقة حتى بلغ نقطة لا تبعد عن البحر الابيض المتوسط غير ميلين اثنين . ولم تقم القوات السورية – وقد عاقتها سياسات دمشق المترددة عن العمل – باكثر من مناورات امتحانية حول المعاقل الاسرائيلية . في حين لم تبتعد القوات اللبنانية كثيراً عن مواقعها الاصلية . أما العراق فكان بين عاملين اثنين : ضَغْطِ بريطانية ، ورغبته الملحة في نصرة حليفاته العربيات ، وكان يرجو – في مأزقه ذاك – أن تتوصل الامم المتحدة الى حلّ عادل للقضية . وأياً ما كان فلم تصل القوات العراقية الى ساحة القتال إلا بعد ان كانت لحظة النصر العاجل قد ماتت .

وليس يدري احد على التحقيق ما الذي حمل الفرقة العربية الاردنية على ان ترتد فجأةً الى الاردن بعد ان شقت طريقها على النحو الذي وصفنا وغدت على مسيرة صباحٍ واحد من اهدافها . ولكن ثمة مجالاً للاعتقاد بأن ضغط بريطانية على المسؤولين في عمان هو السبب في ذلك .